الكتابة المغربية

مظاهر تطورها ونواحي الضعف فيها

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

السنة الثانية - العدد 15 - الخميس 28 جمادى الآخرة عام 1357 - 25 غشت سنة 1938

1

مما يفتخر به ماضي المغرب أنه الماضي الوحيد لجميع أمم العروبة التي حافظت على لغة الضاد في مختلف انقلابات التاريخ فظلت لغته الشعبية والفكرية والرسمية أزيد من اثنى عشر قرنا.

فلقد كان من جراء اكتساح العثمانيين البلدان العربية من بغداد إلى الجزائر الشقيقة، أن عمموا لغتهم التركية في دواوين الحكومة وجميع الهيئات الرسمية، فضعفت بذلك لغة الضاد في تلك الممالك حتى كادت أن تصبح اللغة الدخيلة لغة شعبية لا تدور على أفواه الطبقة الاستقراطية الحاكمة فحسب، بل تستعملها الطبقات المحكومة أيضا، ولو أن اللغة العربية لغة القرآن العظيم لكان من الهين على الأتراك أن يصيروها لغة لا تفهم إلا من طبقة خاصة في تلك الأمم العربية؛ فإن السيطرة العثمانية ظلت سيدة بعض تلك الممالك أمدا غير وجيز، بل يزيد على ثلاثة قرون، وتلك مدة كافية لتتريك اللسان العربي.

أما المغرب البلاد العربية التي لم تعرف سيطرة تركية فقد حافظت فيها اللغة العربية على شيوعها بين طبقات الأمة وعلى رسميتها في معاملات الحكومة الداخلية ومخابراتها الخارجية. وعندما انبثق فجر النهضة المعاصرة في سوريا ومصر وجدت اللغة العربية على

حال من الضعف تكاد تكون خليطا من لغة عربية فصحى ولغة عامية دارجة ولغة تركية يفرضها السادة الحاكمون. فجاهد أبناء تلك البلدان جهادا عسيرا في محاربة هذا الضعف وتخلص لغتهم من ركاكة العامية وأعجمية التركية، وقضوا في ذلك أزيد من قرن تطورت فيها الأساليب العربية تطورات هامة وابتعدت ابتعادا يكاد يكون كليا عن لغة الدواوين الهزيلة التي سادت في أواخر الحكم التركي.

وفي مجموعات الصحافة والمؤلفات العربية التي ظهرت خلال القرن الماضي سجل لتلك التطورات يكاد كل طور يبين عن نفسه وعن مميزاته؛ فهناك طور الترجمة بتعبيراته الدخيلة، وهناك طور الإبداع التقليدي بأسجاعه المرتبة، وهناك طور السلاسة بأسلوبه التجديدي المصطنع.

وجاءت الحرب العظمى فانقلب كل شيء، وتغيرت معالم الحياة، فكان من الكتابة العربية أن عرفت أساليب جديدة، وآفاقا من التفكير فسيحة، وأخذت تسير نحو تمركز في دلالة ألفاظها، ونضوج في أساليب تعبيراتها.

فإن نهضة التأليف تقوت، وأدب المقال ارتكز، وأسلوب القصة أحدث، وفكرة الرواية دشنت، ونحن الآن نشرف على محاولات جديدة في الفن الوصفي الدقيق، وطريقة الحوار الممتع، وخطة السخرية اللاذعة.

تلك تطورات الكتابة العربية في مصر وسوريا والعراق؛ أما المغرب، فهو لا يعرف تلك التطورات لظروف خاصة وأسباب معروفة؛ فإن الكتابة المغربية لم تعرف لغة الدواوين، ولم تنحط العربية بل ظلت لغة التدريس ولغة الحكومة المغربية؛ فكان كتابها ذوي أسلوب عربي فصيح، ومهارة في الفن الإنشائي تذكرنا بعصر عبد الحميد وأسلوب ابن خاقان؛ وحال ضعف الحياة المغربية في مجموعها بين كتابنا وبين إنتاج قيم، ولكن مع ذلك ظلت العربية في الذوق المغربي سليمة.

وبعد أن انقطعت صلتنا بالعالم العربي في القرنين الماضيين، أخذنا نتصل به من جديد عن طريق ما يصدر إلينا من إنتاجه، فكانت هناك طائفة خاصة قبل الحرب العظمى تتابع تطورات الكتابة العربية عن كثب، وأصبح المتعلمون بعد الحرب يهتمون كل الاهتمام بتلك التطورات.

وأخذت الأساليب العربية الجديدة تأخذ بألباب المغاربة، وتتجه بهم إلى محاكاتها؛ وكنا إلى ما قبل سنوات معدودة نتصور أن أسلوب الكتابة المغربية يحتاج إلى مراحل عديدة ليصبح في مستوى الأسلوب العربي في تلك الأمم المتحدة معنا في اللغة، ولقد أظهرت لنا محاولات قليلة أن الأسلوب المغربي، وإن لم ينتج، فهو يساير تلك التطورات، وأنه يقطع مراحلها في شبه خفاء.

فلم تكد تظهر الصحافة المغربية للوجود حتى ظهر كتاب مغاربة يترجمون فيحافظون على بهاء العربية، وينشئون فلا يكلفون أنفسهم زخارف السجع، ويكتبون فينطلقون في تعبير سلس وألفاظ جزلة.

وهكذا كان تأثير النهضة العربية قويا في مظاهر حياتنا بوجه عام وفي الأسلوب الكتابي بوجه خاص، ولقد أظهر لنا هذا التأثير تلك المحاولات القليلة في عالم الصحافة المغربية التي لم تبرز للوجود إلا منذ أمد وجيز.

وإذ كنا نستبشر قليلا بهذا التطور السريع في الكتابة المغربية فإننا نتلمس نواحي ضعف كثيرة تفتقر إلى العمل الصحيح لتتقوى؛ فإن بين التطور والنضوج مراحل يجب أن تقطع في زمن يسير لتأخذ الكتابة المغربية مكانتها بين كتابات الأمم العربية. فما هى نواحي الضعف في كتابتنا، وما هى طرق العلاج لذلك الضعف الذي يحول بيننا وبين النضج الصحيح؟ ذلك ما أرجو أن يكون حديثي في العدد المقبل.